

## الشعر الأندلسي في تواريخ الأدب العربي

د. أحمد عبد القادر صلاحية<sup>(١)</sup>

**ل**م تكن أوائل تواريخ الأدب العربي تفرد الأدب الأندلسي بجزء خاص من تأليفها بل كانت تدمجه في ثنايا الأدب العباسي وتشير إليه إشارات يسيرة في أثنائه، والمثال الأوضح على ذلك الكتاب: "تاريخ آداب اللغة العربية" للأستاذ جرجي زيدان.

من أوائل التواريخ الأدبية تأليفاً والتي جعلت للأدب الأندلسي مساحة من أسفارها كتاب: "تاريخ آداب العرب" للأستاذ مصطفى صادق الرافعي الذي ألفه نحو ١٩١٢، ومع أن المنية قد اخترمت المؤلف قبل إنهائه وتفتيحه، ومع سقوط أوراق من مسودته التي أخرجها إلى النور الأستاذ محمد سعيد العريان، ومع كونه من رواد من ولج هذا الميدان فإني أعد ماكتبه أفضل ماكتب عن الأدب الأندلسي في تواريخ الأدب العربي إلى الآن؛ نظراً إلى رؤيته الشمولية الثاقبة وأحكامه المنصفة واستيعابه الواسع بالقياس إلى عصره وإلى كمية المصادر المطبوعة والمتاحة في ذلك الوقت عن "الفرع الفينان من الحضارة العربية"<sup>(٢)</sup> كما يسميه الأستاذ الرافعي، ومنذ البداية يقرر اعتلاء الأدب الأندلسي مرتبة سامقة لا يعلوها سوى الأدب العراقي في تاريخ الأدب العربي، ومع ذلك فإن الأندلس تتميز في بعض المجالات من العراق، يقول: "إنَّ الأدب الأندلسي لا يبزه في التاريخ إلا الأدب العراقي، ولقد يكون في الأندلس ما ليس في العراق من بعض فروع الحضارة والصناعة غير الفرق مابين المواطنين في زينة الطبيعة ونضارة الإقليم"<sup>(٣)</sup>.

ولعل الرافعي هو الأوّل والأعظم من بين مؤرخي الأدب الأندلسي في تمييز نسيج الشعر الأندلسي من سواه من نسيج أشعار الأقطار العربية بفرسته الشعرية الدقيقة بل يرد على من لا يفرق بينهما ويتهمه بالجهل والسطحية والاهتمام بالقشور وترك اللبوب، يقول: "لقد يخطئ من يزعم أن

(١) رئيس تحرير نشرة مختارات عسكرية - مركز الدراسات العسكرية - دمشق

(٢) الرافعي - تاريخ آداب العرب ٢٥٣/٣.

(٣) المرجع نفسه، ٢٥٤/٣.

شعر الأندلسيين يغيب في سواد<sup>(١)</sup> غيره من شعر الأقاليم الأخرى كالعراق والشام والحجاز بحيث يشتهب النسيج وتلتحم الديباجة وذلك زعم من لا يعرف الشعر إلا بأوزانه ولا يميز غير ظاهرة<sup>(٢)</sup>.

من ثم يشخص خصائص الشعر الأندلسي وسماته ومزاياه بمسبر ثاقب فيكون الخيال في رأس قائمة هذه المزايا، وكذلك المعاني المبتكرة والموسيقى الساحرة ويذكر أهم بواعثها من حضارة جديدة وطبيعة خلابة، ويورد أهم أدواتها وهي إحكام التشبيه وبراعة الوصف بوصفهما جوهر الشعر، يقول: "يمتاز شعر فحول الأندلس بتجسيم الخيال النحيف وإحاطته بالمعاني المبتكرة التي توحى بها الحضارة، والتصرف في أرق فنون القول واختيار الألفاظ التي تكون مادة لتصوير الطبيعة وإداعها في جمل وعبارات تخرج بطبيعتها كأنها التوقيع الموسيقي.. ومن أجل ذلك أحكموا التشبيه وبرعوا في الوصف لأنهما عنصران لازمان في تركيب هذه الفلسفة الروحية التي هي الشعر الطبيعي"<sup>(٣)</sup>.

يختلف هذا القول كثيراً عن أقوال بعض المستشرقين في تعليل اهتمام الشعراء الأندلسيين بالخيال فبينما جعلوا من روعة الخيال كلاً على الشعر وتقللاً على صدره، وغلظة تذهب رونق الشعر إذ بالأستاذ الرفاعي يجعل ذلك شيئاً لازماً لازماً ضرورياً في مكونات الشعر الحقيقي وفي الفلسفة الشعرية الروحية للأندلسيين. وقد تفرد الأستاذ الرفاعي بوصف الخيال الشعري الأندلسي بالنحافة قاصداً امتزاج الخيال بالركة مضيفاً إليه التجسيم أي كثرة اهتمام الشعراء الأندلسيين بتشخيص الجمادات وأشباهاها وتجسيدها؛ كل ذلك بوحى من الحضارة الجديدة الغنية.

لا يكتفي المؤلف بتبيان سمات الشعر الأندلسي التي قد يشركه فيها شطر من الشعر العربي، فليست الرقة والخيال البديع والموسيقى العذبة مقصورة على الشعر الأندلسي، لذلك يدقق في الفوارق الجزئية من دون حماسة جارفة أو ميل إلى الشعر الأندلسي بل على العكس من ذلك إذ يحاول تلمس الموضوعية وإن لم يخل أسلوبه في التعبير من الإنشائية وأحكامه من الرومانسية الحاملة يقول: "وقد يشاركهم في كثير من ذلك شعراء الشام، ولكن رقة هؤلاء عربية مصفاة وبذلك امتازوا على عرب الحجاز والعراق فهم لا يهولون بالألفاظ المقعقة ولا يغالون في فخامة التراكمات ولكن لا يستقبلك في شعرهم ما يستقبلك في شعر الأندلسيين من الشعور الروحي الذي لا سبيل إلى تصويره بالألفاظ والذي تتبين معه أن الفرق بين الخياليين كأنه الفرق بين البلدين في التبعية والاستقلال، وليس يدل ماقدمناه على أن شعر فحول الأندلسيين ممتاز على إطلاقه وأن غيره لا يمتاز عليه بل الأمر في ذلك كالجمال: كل أنواعه حسن رائع ولكن النحافة اللينة منه تستدعي -مع الإعجاب- رقة؛ هي بعينها التي يجدها من يتدبر ذلك الشعر"<sup>(٤)</sup>.

إن أحكام الأستاذ الرفاعي لاتخرج عن الانتطباع الذاتي الصادر عن فراسة صيرفي خبير وهي -

(١) السواد: كل عدد كثير.

(٢) المرجع نفسه، ٢٩٦/٣.

(٣) المرجع نفسه، ٢٩٦/٣.

(٤) المرجع نفسه، ٢٩٦-٢٩٧/٣.





خصب وغنى، وموطن حضارة ولهو وجمال فانصرف أهلها إلى متع الحياة يتذوقونها فأسرفوا في طلب المذات، انغمسوا في حمأة الدعارة، وتهتك شاعرهم وكاتبهم فنطقت شفتاه بأفحش الأقوال، وتمادى في ذكر مجالس اللهو والخمر والتعهر غير متحوب ولا وجل<sup>(١٧)</sup>.

وهو كذلك يتحدث عن محبة الأندلسيين طبيعة بلدهم وأثرهم في تجميل خيالاتهم فينسب الفضل إلى الطبيعة ويقصره عليها من دونهم في ذلك مع أن لخيال الشاعر الخلاق الأثر الأكبر في الإبداع والاختراع، يقول: "وشَغَفُ الأندلسيين بالطبيعة منحهم خيلاً جميلاً وتشابه حلو، فكانت الرقة والنعومة ميزة أشعارهم والفضل في ذلك للأندلس وما لربوعها من تأثير في نفوسهم"<sup>(١٨)</sup>.

إن كثيراً من هذه الأوصاف الواهمة تدل على عدم اطلاع أصحابها اطلاعاً كافياً على الأدب الأندلسي إذ يخالفون حقائق مشهورة كعناية الأندلسيين بتصيد المعاني والغوص عليها كما يقول ابن سعيد<sup>(١٩)</sup>، وكذلك وصم الشعر الأندلسي بأنه لمجرد الغناء مما يستبطن وراءه الزعم بضحالة الفكر الأندلسي، يقول "والشعر الأندلسي فيه رقة وجمال وفيه خيال لطيف، وصور براقة ملونة، ولكن ليس فيه من المعاني الدقيقة ما في الشعر العباسي لأن أصحابه عنوا بتزيين ألفاظه وتوشية أوصافه، والتتوق في قواله أكثر من عنايتهم بتصيد مغانيه والغوص عليها في قراتها البعيدة فكانهم أرادوا أن يتغنوا فنظموه صالحاً للغناء"<sup>(٢٠)</sup>.

أما تقليد الشعراء الأندلسيين للشعراء المشارقة وتقصيرهم عنهم، واقتصار تجديدهم وتفوقهم على بعض الموضوعات أي في الإطار الخارجي ففي مثل قوله: "ولم يترك أهل الأندلس باباً من أبواب الشعر المعروفة إلا قرعوه ونوعوا أغراضه وفنونه، فمنه ما ترسموا به أهل المشرق فواطؤوهم في معانيهم وشاركوهم في أساليبهم وعارضوهم في مشهورات قصائدهم ولكنهم لم يبلغوا شأوهم ولا شقوا غبارهم، ومنه ما طبعوه بطابعهم الخاص وبذوا به المشارقة كوصف الطبيعة والعمران وراث الممالك البائدة"<sup>(٢١)</sup>.

(١٧) البستاني - أدباء العرب في الأندلس ص ٣٥-٣٦.

(١٨) المرجع نفسه، ص ٨٣.

(١٩) ابن سعيد المغربي (٦١٠-٦٨٥هـ - ١٢١٤-١٢٨٦م).

علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي المنلجي، أبو الحسن نور الدين من ذرية عمار بن ياسر، مؤرخ أندلسي من الشعراء العلماء بالأدب، ولد بقلعة يحصب قرب غرناطة ونشأ واشتهر بغرناطة، قام برحلة طويلة زار بها مصر والعراق والشام وتوفي بتونس، وقيل في دمشق. من تأليفه: المشرق في حلى المشرق - خ والمغرب في حلى المغرب - ط، أربعة مجلدات منه طبع منها جزآن وهو تصنيف جماعة آخرهم ابن سعيد و"المرقصات والمطربات - ط" في الأدب و"الغصون اليناعة في شعراء المئة السابعة - ط" و"المقطف من أزهار الطرف - ط"، و"الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد"، تاريخ بيته وبلده وديوان شعره، ووصف الكون - خ، وبسط الأرض - خ، كلاهما في الجغرافية، والقدرح المعلى - ط، اختصاره في تراجم بعض شعراء الأندلس، ورايات المبرزين - ط انتقاء من "المغرب"، وأخباره كثيرة، وشعره رقيق جزل - الزركلي - الأعلام ٢٦/٥.

(٢٠) البستاني - أدباء العرب في الأندلس - ص ٣٩.

(٢١) المرجع نفسه، ص ٤٠.





لقد حكم د. ضيف على الشعر الأندلسي - في كتابه الأول - بالموت المبرم من دون وجه حق أما في كتابه الثاني "عصر الدول والإمارات - الأندلس" فتقلب الصورة رأساً على عقب فتنقفي للمحات الرومانسية إلى جمال الطبيعة وتتحول إلى معلومات جغرافية واقعية<sup>(٢٩)</sup>، وتنتهي عبارات التقليد الأعمى ويبتعد كثيراً عن النظر إلى المشرق بل يتحول إلى مدافع عن الأندلس ويحاول أن يرسم "هذه الصورة المستوعبة لأدب الأندلس مع تصحيح الأحكام المخطئة التي من شأنها الغض من مكانته الرفيعة"<sup>(٣٠)</sup>، وليس هذا فحسب بل يذكر - ربما أول مرة - تفوق الأندلس في غرضي الغزل ووصف الطبيعة، يقول: "وأول غرض عرضه الغزل، وفيه تتفوق الأندلس - في رأينا - على جميع البلدان العربية... وتحول الفصل من الغزل إلى الطبيعة والخمر، وينوه البحث دائماً بتفوق الأندلس على البلدان العربية في شعر الطبيعة، لما كان يتملى به الشاعر من جمال هذا الفردوس بجناته ورياضه وأزهاره ورياحينه وأنهاره وما يجري فيها أو يتهادى من زوارق تزدان بالشموع ليلاً وكأن أهل الأندلس كانوا في عرس دائم ليلاً ونهاراً. وقد تغنى الشعراء الأندلسيون بجمال هذا الفردوس الأرضي وما يسكب في النفوس من سحر يروع القلوب والألباب على نحو ما هو معروف عن ابن خفاجة وتفجؤنا عنده وعند أضرابه من شعراء الطبيعة - بل عند جميع شعراء الأندلس في كل الأغراض الشعرية - صور في منتهى الروعة"<sup>(٣١)</sup>.

بيد أنه في غمار البحث يلجأ إلى المنهج الوصفي وطريقة الاستيعاب، ويطامن كثيراً من قوله بتفوق الغزل الأندلسي؛ فأكثر ما يقول: إن صور الغزل في قصائد الشعر الأندلسية: "تأخذ نسقاً أندلسياً جديداً ينعش الفكر بعبقه"<sup>(٣٢)</sup>.

وكذلك فإن تنويجه الدائم بتفوق الأندلس في شعر الطبيعة على البلدان العربية لا نكاد نسمع له حساً في فصل شعراء الطبيعة ولا نكاد نجد له صدى - أي صدى - إلا في ترجمة ابن خفاجة<sup>(٣٣)</sup> حيث يقول: "أحسن بعناصر الطبيعة إحساساً عميقاً وهو إحساس تفرد به لابن شعراء الأندلس وحدهم بل بين شعراء العربية جميعاً بحيث يعد أكبر شعراء الطبيعة عند العرب في مختلف عصورهم"<sup>(٣٤)</sup>.

لاتفارق تلك الصورة المشوهة والأوهام الخطيرة تواريخ الأدب التالية المختصرة منها والمطولة على نسب متفاوتة؛ من تصوير للطبيعة الفاتنة وتوهم انصراف الناس إلى اللهو والسكر من جانب؛

(٢٩) ضيف، د. شوقي - عصر الدول والإمارات - الأندلس ص ١٣.

(٣٠) المرجع نفسه، ص ١٢.

(٣١) المرجع نفسه، ص ٧-٨.

(٣٢) المرجع نفسه، ص ٢٦٤.

(٣٣) "ابن خفاجة: (٤٥٠-٥٣٣ هـ - ١٠٥٨-١١٣٨ م)".

إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الهواري الأندلسي شاعر غزل من الكتاب البلغاء. غلب على شعره وصف الرياض ومناظر الطبيعة وهو من أهل جزيرة شقر "Alcira" من أعمال بلنسية في شرقي الأندلس لم يتعرض لاستمache ملوك الطوائف مع تهافتهم على الأدب وأهله له "ديوان شعر - ط" الزركلي - الأعلام ٥٧/١.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ٣٢٠.







رومانسية غير أن المهم فيها أنه جعل الخيال وتجليه أهم دلائل الدفاع عن الأدب الأندلسي ونفي تهمة الاجترار والتقليد ومن ثم الحكم للأدب الأندلسي بالتجديد والروعة والخلود يقول: "وأهل الأندلس إذا كانوا قد جعلوا المشاركة مثلهم الأعلى أو أساتذتهم الموجهين أو منارهم الهادي، فإن ذلك لا يعني أن أدبهم كان صورة جامدة أو مثلاً جافاً أو تقليداً أعمى أو غير مستقل كل الاستقلال أو بعضه فإن الخيال الرائع الذي نعثر عليه في الأدب الأندلسي والصور الجميلة التي نصادفها والتفكير السليم الذي نجده والألفاظ الحلوة التي نلتقي بها والأسلوب القوي الذي نقرؤه والإبداع النادر الذي نحصل عليه ترينا مقدار ما أسدى إلى الأدب العربي ذلك التراث من أياد لا نذكرها له إلا خلعتنا عليه رداء من الثناء الخالد والمدح الخالص والإجلال البالغ والاحترام الزائد" (٤٥).

ليس هذا فحسب بل يثبت تفوقهم الساحق على المشرق في ميدان الوصف بعبارات إنشائية تلفت كل أحكامه وآرائه التي تتجاف الحقائق بمبالغتها الكبيرة يقول: "إن المشاركة لم يكن لهم في هذا الميدان من البراعة والدقة والابتكار والتجديد والعبقرية والإلهام ما كان للأندلسيين الذين كان شعرهم فيه سيد الشعر وقولهم فيه أربى على السحر ويظهر أن جمال البيئة وطيب المناخ ساعدتهم على أن يأتوا فيه بالوحي الذي لا يكذب والآيات التي لا ترد والإبداع الذي يتجاوز قدرة الناس" (٤٦). والذي أراه أن الباحث لو التزم القصد في آرائه والاعتدال في أحكامه لأضفى عليهما طابعاً أكبر من المعقولية ومن ثم أدخلهما حيز القبول ففي الشعر الأندلسي غنى عن هذه المبالغات وفيه ما يكفي لإقرار وجوده زهرة مميزة بأريج الخيال في حدائق الشعر العربي.

وأوسع تاريخ للأدب الأندلسي حتى الوقت الحاضر صدر في ثمانينيات هذا القرن هو "تاريخ الأدب العربي" للدكتور عمر فروخ الذي خص المغرب العربي والأندلس معاً بالقسم الثاني في الأجزاء الرابع والخامس والسادس من كتابه، وهو إلى معاجم التراجم أقرب منه إلى التاريخ الأدبي وإن كان يستهل كل مرحلة زمنية في كل عصر أندلسي ببحث عنها قد يطول وقد يقصر، وكان شبح تقليد الأندلس للمشرق يسيطر على الجزء الرابع ولكنه يضمحل كثيراً في القسم الأول من الجزء الخامس أي في مقدمة تراجمه عن الشعراء والنائرين في عصر المرابطين ثم يتلاشى في القسم الثاني أي في عصر الموحدين وتمحي تماماً في الجزء السادس - أي في عصر بني نصر في الأندلس - تلك الموازنة بين المشرق والأندلس وتقتصر المعالجة الأدبية على بعض الظواهر الحديثة في الشعر مما يرجح اقترابه أكثر فأكثر إلى كتب التراجم وتغير نظرته إلى الأدب الأندلسي فيما يتعلق بالتقليد والتجديد أو انعدام الشواهد الدالة على ذلك. لقد كثرت المقدمات في الجزء الرابع وتباينت في تأكيدها التقليد من دون مراعاة المراحل الزمنية إذ حجب ضباب الحماسة مجال الرؤية الصحيح ومنذ الاستهلال بالكلمة الأولى قبل "المقدمة" ينص على تقليد الأندلس عامة للمشرق حتى فيما اتفق النقاد على تجديدها فيه وهو الموشح، يقول: "يجب ألا يستغرب القارئ إذا قلت له إن الأدب الأندلسي

(٤٥) المرجع نفسه، ص ٧٠.

(٤٦) المرجع نفسه، ص ١٦٧.

(وخصوصاً في النثر) كان تقليداً واضحاً للأدب المشرقي إذ كان الأدب المشرقي هو المثال الذي اقتدى به المغاربة في إنشاء أدبهم، لاشك في أن الموشح فن مغربي (أندلسي) ولكن خصائص مغربية كثيرة اجتمعت في الموشحات كانت مشرقية في أصولها<sup>(٤٧)</sup>.

ومن ثم نجد أنه يصف الشعر في عصر الإمارة بأن "الخصائص العامة من الفنون والأغراض والأسلوب ظلت كلها مشرقية"<sup>(٤٨)</sup> ثم يقسمه قسمين؛ الأول: بقية القرن الثاني وأكثر أصحابه من المشرقيين الطائرين على الأندلس، والثاني: القرن الثالث؛ وفيه يخرج عن رأيه السابق ليقول: "ومع أن خصائص هؤلاء الشعراء كانت لا تزال في الأكثر مشرقية تجري في نطاق الشعر الجاهلي أو الشعر الأموي أو الشعر العباسي فإن نفراً منهم قد خرج عن نطاق التقليد وعن شعر الحماسة إلى فنون منها الرثاء والوصف والغزل والخمر. وإذا كان بعض الشعر في الأندلس قد فارق عدداً من خصائصه المشرقية فإن النثر ظل -أبداً- مشرقياً... ثم إن الشعر عند عدّه فناً وجدياً شخصياً -أكثر من النثر في العادة- قد تأثر بالبيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية في الأندلس إلى حد بعيد"<sup>(٤٩)</sup>.

وفضلاً عن هذا التناقض اليسير نجده في القرن التالي يرسخ سمات التقليد ويغفل بؤادر التجديد التي ذكرها سابقاً؛ فإذا كان الشعر أكثر تأثراً بالبيئة الطبيعية والاجتماعية الجديدة في الأندلس واستطاع في الشطر الثاني من عصر الإمارة أن يكسر بعض قيود التقليد المشرقية فمن المنطقي أن التأثر بالبيئة الأندلسية أكثر والتحلل من تلك القيود أكبر بمرور الزمن وإقامة الخلافة الأندلسية سنة ٣١٦هـ ندأ تعارض المشرقية، ولكن د. فروخ لم ير هذا الرأي واستمر في تعميق الأثر المشرقي، يقول: "لم يختلف الأدب الأندلسي في الشعر والنثر من الأدب المشرقي - في خصائصه المعنوية وخصائصه اللفظية - اختلافاً ظاهراً"<sup>(٥٠)</sup>. وكذلك الأمر في عصر ملوك الطوائف فما زالت الفنون والأغراض الأندلسية هي نفسها -برأيه- الفنون المشرقية ولكن "الأندلسيين عالجوا هذه الفنون وهذه الأغراض نفسها معالجة جديدة من حيث المقدار لا من حيث النوع، لقد أكثروا من التشخيص (إضفاء صفات الأحياء على الكائنات الجامدة) ومن سعة الخيال. أما فيما عدا ذلك فإن النفس المشرقي العربي والأثر المشرقي الفارسي - من خلال النفس العربي - ظلّا يسريان في الأدب الأندلسي"<sup>(٥١)</sup>. ويظفر عصر المرابطين بإشارة يسيرة إلى استمرار التقليد فيرى أن "التقليد ظلّ بادياً على قصائد هؤلاء الشعراء وخصوصاً من أثر ديوان المتنبي وديوان المعري المشرقيين ولم تكتسب القصائد المقلدة كثيراً من صحة الشعر المشرقي ومثاقه"<sup>(٥٢)</sup>. ويخلو عصر الموحدين وبني نصر من أية إشارة إلى ذلك ولعل في هذا تراجعاً في الرأي وهروباً من تغيير الحكم بالصمت عنه.

(٤٧) فروخ - تاريخ الأدب العربي ٦/٤.

(٤٨) المرجع نفسه، ص ٦٤/٤.

(٤٩) المرجع نفسه، ص ٧٥/٤.

(٥٠) المرجع نفسه، ص ١٩٤/٤.

(٥١) المرجع نفسه، ص ٣٩٧/٤.

(٥٢) المرجع نفسه، ص ٤٣/٥.





